نص لـ ((منجك باشا اليوسفي))

قال منجك باشا اليوسفي:

١. لَـو كُنـت أَطمَـع بِالمَنـام تَوَهُّـما   لَسـأَلتُ طَيفَـكَ أَنْ يَـزور تَكرُّما

٢. حاشـا صُـدودَك أَن تُـذَمَّ فَإِنَّهـا   تَحلـو لَـدَيَّ وَإِنْ أُسِـيغَتْ عَلقَـما

٣. فَاهجُر فَهَجـرُكَ لي التِفـاتُ مَـودّةٍ   أَلقـاهُ مِنـكَ تَحَنُّنـاً وَتَرَحُّـما

٤. عَـذِّبْ فُـؤاديَ بِالَّـذي تَختـارُه   لَـو كُنـتُ مَنْسِـيّاً تَرَكـتُ وَإِنَّـما

٥. لَو لَمْ تَكُن بِغُبـارِ طَرفِـكِ كُحِّلَـتْ   عَين الغَزالَةِ صَـدَّها وجـهُ الـدُّمى

٦. عِيدي لِفَقدِكَ مَأتَمٌ لَـو صـافَحَت   فيـهِ المَسَّـرةُ خـاطِري لَتَأَلَّـما

٧. هاتِ اسقِني كَأس المَلامـة عـاذِلي   وَأَدِرْ عَـلَيَّ حَديثَـهُ مُـتَرَنِّما

٨. فَإِذا ذَكرت لِيَ الحَبيـبَ يَكـادُ مِـن   طَـربي يَقبِّـل مَسـمَعي مِنـكَ الفَـما

٩. وإِني لَأَعشَـقُ في هَـواهُ عَـواذِلي   شَـغَفاً بِـهِ وَأَوَدُّ فيـهِ اللُّوَّمِـا

١٠. سَرَقَ الرَسول بَلَحظِهِ مِـن وَجهِـهِ   حُسناً أَبـى عَـن نـاظِري أَن يُكـتما

١١. دَعنـي أُسـامر هَجـرَهُ في خَلْـوَةٍ   فَكَفـى لِمِـثليَ أَنْ يَـراني مُحرِمـا

١٢. بَـدرٌ مِـن الأَتـراك لَمّـا أَنْ بَـدا   تَـرَكَ البُـدورَ تُـرى لِعَينـكَ أَنجُما

١٣. تَسـقي لَواحِظُـهُ العُقـول مُدامـةً   الصَّـحوُ مِنهـا لا يَـزالُ مُحرّمـا

١٤. لَـو بِـتُّ أَشـكو ظلمـه لَشَـكَوتُهُ لِمَليكِ هَـذا الـدَّهرِ أَسـما مَـنْ سَـما

١٥. مَلـكٌ مِـن الإِيـمان جَـرَّد صَـارِماً بِالحَقِّ حَتّى الكُفـرُ أَصـبَحَ مُسـلِما

١٦. قَد جَهَّز السُّفنَ الَّتي لـو صـادَمَت (رَضـوى) بِأَيسـر لَمحـةٍ لَتَهـدَّما

١٧. وَتلهَّـبَ البَحـرُ الخِضَـمُّ مَهابَـةً مِنـهُ فَظَنَتـهُ (كَريـتُ) جَهَـنَّما

١٨. لَـو شـاهَدَ المَطـرودُ سَـطوةَ بأسِـهِ فِي صُـلبِ آدم لِلسُّـجودِ تَقَـدَّما

١٩. العَـدلُ أَخـرس كـانَ قَبـل زَمانِـهِ أَذِنـت لَـهُ الأَيّـامُ أَنْ يَـتَكَلَّما

٢٠. يَذَرُ الدُّجى بِالبَشرِ صُبحاً مُشَـرقاً وَالصُّـبح بالإِرهـابِ لَـيلاً مُظلِـما

٢١. لَم تَخْـطُ آسـادُ الفَـلا فِي عَهـدِهِ بَـينَ الشَـقائقِ خيفـةً أَن تُـتهما

٢٢. عقـدَ المُثـارُ عَـلى العُـداةِ سَـحائباً لَولا الحَيا لَسـقى السَّـما مِنهـا دَمَـا

٢٣. وَدَعَـت ظُبـاهُ الطَّـيرَ حَتّـى إِنَّـهُ قَد كاد يَسقُطُ فَرحـةً نَسـرُ السَّـما

٢٤. لَو يَرتَضـي حَمْـل السِّـهامِ لِغَـارةٍ لَرَأَيتَـهُ اِتَّخَـذَ الكَواكـبَ أَسْـهُما

٢٥. أَو شاءَ أَنْ يَهَب المُلوكَ لـبَعض مـا فِي رِقّـهِ مُسـتَحقراً لَتَبَرَّمـا

٢٦. صَحَّتْ مِن السُّقمِ العُقولُ بِحِلمِـهِ وَبِظِلِّهِ الدِّينُ القَـويمُ قَـد اِحتَمـى

٢٧. تُبْ يـا زَمـانُ فَـإِنْ ذَكَرتُـكَ عِنـدَهُ مِـن قَبـلِ أَن يَنهـاكَ مِـتَّ تَوَهُّمـا

أفكار النص وموضوعه:

النص في المديح التقليدي فهو يصدر عن الشاعر موجَّهاً إلى الحاكم العثماني السلطان (إبراهيم)، ويقع في /٢٧/ بيتاً جعلها الشاعر مناصفة للنسيب ثلاثة عشر بيتاً ونصف البيت، وللمديح (الغرض الرئيسي) ثلاثة عشر بيتاً ونصف، إذ ينقضي النسيب ببيت شطره الأول نسيبي وشطره الثاني مدحيّ وهو قوله:

١٤. لَـو بِـتُّ أَشـكو ظلمـه لَشَـكَوتُهُ لِمَليكِ هَـذا الـدَّهرِ أَسـما مَـنْ سَـما

فهي قسمة عادلة تماماً ويسمى هذا البيت (بيت التخلّص).

والناظر في معاني النسيب يجد المعاني التقليدية فهو حب يجد الشاعر فيه شقاءً وعنتاً وصدّاً وهجراناً من المحبوبة، وهذا ما يجعله يتعلق بالمحبوب أكثر ويرى في الهجران ضرباً من ضروب المودة في قوله:

٤. عَـذِّبْ فُـؤاديَ بِالَّـذي تَختـارُه لَـو كُنـتُ مَنْسِـيّاً تَرَكـتُ وَإِنَّـما

٥. لَو لَم تَكُن بِغُبـارِ طَرفِـكِ كُحِّلَـتْ عَين الغَزالةِ صَـدَّها وجـهُ الـدُّمى

فالشاعر (منجك باشا) يؤول هجران المحبوبة بأنه نوع من الاهتمام والمحبة فلو لم يكن يعنيه لما هجره، ولو لم يكن يتذكره لما عذّبه، وكذلك تعذيب المحبوب للشاعر ضرب من الحب ومستوى من مستويات العلاقة، وهذا نوع من المثالية والتكميل والتكلف في الحب وإنما هي تجربة متخيَّله وهذا التخيل يسمح بمثل هذه المثاليات.

كذلك يرى في كلام العذال والوشاة واللُّوم آياتٍ حسنة، مما يجعله يودُّ اللائمين ويعشق العذّال. وهذا يتجلّى في قوله:

٧. هات اسقِني كَأس المَلامـة عـاذِلي وَأدِرْ عَـلـيَّ حَديثـهُ مُـتَرَنِّما

٨. فَإِذا ذَكرت ليَ الحَبيبَ يَكادُ مِن طَربي يَقبِّل مَسمَعي مِنكَ الفَما

٩. وإِني لَأَعشَقُ في هَواهُ عَواذِلي شَغَفاً بِهِ وَأَوَدُّ فيهِ اللَّوَّما

وفي هذا محاولة لإيصال العلاقة المتخيلة إلى أقصى حدودها ونلاحظ أن الشعراء عديماً كانوا يظهرون تبّرمهم من الوشاة، وحقدهم على العذّال، ولكنّ (منجك باشا) فعل عكس ذلك، فأظهر الود والمحبة لهم.

ثم يصف الشاعر محبوبه بانه (بدرٌ من الأتراك) وهذا مما يناسب المقام فهو في (الآستانة) والممدوح سلطان عثماني تركي، فاختياره لوصف المحبوب بانه (بدر من الأتراك) مقصود، وفيه تلميح وتمهيد للغرض الرئيس (مدح السلطان العثماني التركي).

ثم يصف بأنه شديد الجمال والهيبة يؤثر في العقول ويسلب الألباب بلواحظه كما تسلبها الخمرة.

وبعد بيت التخلّص (لَوْبتُّ أشكو) تأتي المعاني المتعلقة بالممدوح: ولما كان الممدوح سلطاناً عثمانياً فقد ساق الشاعر جملة من المعاني المتكررة في مديح الشعراء للسلاطين العثمانيين وهي:

١. الدفاع عن الدين وحماية الإسلام ونشره، ووصف السلطان بالإيمان وهذا على صلة بالشرعية التي قدمها العثمانيون لدولتهم، فهم يدّعون أنهم يحافظون على الإسلام والأمة الإسلامية، وبغير هذه الذريعة لا شرعية لهم.

٢. محاربة السلطان للكفر والكفار، وقد بالغ الشاعر في ذلك، إذ جعل الكفر كله يسلم، فلم يعد هناك كفر في عهد الممدوح، وهذه مبالغة عجيبة ويتجلى هذا في قوله:

١٥. مَلكٌ مِن الإِيمان جَرَّد صَارِماً بِالحَقِّ حَتّى الكُفرُ أَصبَحَ مُسلِما

والمبالغة والإفراط والغلو من أبرز خصائص النص

- ننبه على أن الشعراء المتأخرين عمدوا إلى المبالغة في كل المعاني، وكأنهم نظروا إلى أقوال الأقدمين فوجدوا من سبقهم قد استهلك واستنفد كل المعاني في المديح والهجاء والغزل. فلم يجدوا سبيلاً إلى الإتيان بجديد سوى أن يبالغوا في المعاني القديمة نفها، ويلبسوها لبوس الغلو والإفراط أو النقل من مقام إلى مقام أو من غرض إلى غرض وهذه محاولة للتجديد.

٣. القوة العسكرية والشجاعة التي يتسم بها الممدوح، يقول الشاعر:

١٨. لَـو شـاهَدَ المَطـرودُ سَـطوةَ بأسِـهِ   في صُـــلبِ آدم لِلسُّـــجودِ تَقَــدَّما

فالشاعر يقصد أن الشيطان (المطرود) لو نظر إلى الممدوح (السلطان إبراهيم) وهو في صلب أبيه عليه السلام، وأدرك أنه من ذرية (آدم) مَن سيكون شجاعاً وقوياً إلى حدّ كبير لما تردد في السجود أبداً، والمسألة كلها تقوم على أن جميع أبناء لما تردد في السجود أبداً، والمسألة كلها تقوم على أن جميع أبناء آدم كانوا في عالم الذرّ وهم في صلب أبيهم آدم، وهذه الصورة محاولة لإحياء معنى القوة والسطوة وشدة البأس في الممدوح، وفي هذا المعنى عودة إلى قصة آدام وإبليس والمشهد القرآني الذي يرفض فيه (إبليس) السجود لآدم عليه السلام، وهذا من التناقض القرآني

٤. العدل: وهو معنى موفور ومطروق عند القدماء، فمن عادة الشعراء أن يمدحوا الحاكم بالعدل ولكن الشاعر قصد إلى إحياء المعنى وتجديده فقد جعل العدل أخرس فيما سبق، لكنه تكلّم ونطق في عهد السلطان الممدوح (إبراهيم) يقول:

١٩. العَـدلُ أَخـرسَ كـانَ قَبـل زَمانِـهِ   أَذِنـــت لَـــهُ الأَيّـــامُ أَنْ يَـــتَكَلَّما

ونجد أنه استعار للعدل صفات الإنسان فهي استعارة تشخيصية وقد كرر الشاعر معنى القوة ليثبته للمدوح، وأورد صوراً جزئية تفصيلية:

٢٣. **وَدَعَـت ظُبـاهُ الطَّـيرَ حَتّـى إنَّـهُ قَد كاد يَسقُطُ فَرحـةً نَسـرُ السَّـما**

فالكلام هنا على حروب السلطان وكثرة القتلى التي تخلّفها معاركه مع الأعداء وتحيلها وليمة دسمة للطيور الجارحة والنسور.

إذا إنّ النسور تتأهب لافتراس أجساد القتلى كلما تأهب السلطان لمعركة من معاركه، وهذه صورة قديمة جداً.

ثم يقول في مديح النعمان والحديث قوته:

إذا مـا غـزا بـالجيش حلّـق فوقـه عصـائبُ طـيرٍ تهتـدي بعصـائب

لكن (منجك باشا) حاول أن يحدد المعنى، وجعل الدعوة موجهة من سيوف السلطان، وجعل الفرحة بادية على نسور السماء التي دعيت لاقتيات الخبث.

الجوانب الفنية:

إن قسمة القصيدة بهذا الشكل (ثلاثة عشر بيتاً ونصف البيت في النسيب وثلاثة عشر بيتاً ونصف البيت في المديح) هو أمر أعدّ له الشاعر وحضّره في نفسه مسبقاً. ولم يأت هكذا عفو الخاطر، وله دلالة مهمة فهو من الصنعة والتربص الفنّي في بناء القصيدة، ثم إنك إذا نظرت في المعاني النسيبية فإنك لا تعدم أموراً منها: أنك تجد ظلالاً وانعكاسات للمعاملة التي لقيها الشاعر في الآستانة كالصّدّ والهجران والتعذيب، وليس بالبعيد أن يكون الشاعر قد اختار معاني النسيب بهذا الشكل من الحبّ الشقي المعذب ليشير إلى المعاملة التي لقيها في الآستانة كالإخفاق والفشل والصّدّ من الحكام العثمانيين، ويجعله يميل إلى اختيار هذه

الأحوال الشقية التي عرضت له في الآستانة، وقد يكون دلالة على ذلك وصفه للمحبوب بأنه تركي الأصل وكل هذا من باب الظن.

وما تقدّم من حديث يشير إلى براعة استهلال الشاعر، ويقصد ببراعة الاستهلال أن يكون في مطلع القصيدة ما يوحي إلى غرض القصيدة الرئيس وقد يكون الشاعر قد عمد إلى الحديث عن هذه المعاني من الحب الشّقي وتحديد جنس المحبوب وغير ذلك من الدلائل ليربط بين المحبوب المفترض والممدوح، وكل هذا من صنعة الشاعر واقتداره.

- أمّا أبيات المديح فقد تشدد على المعاني المطلوبة في مديح السلاطين ونرصد في الأبيات علاقة التناص التي نجدها في تلميحه إلى قصة آدم مع إبليس، وفي حديثه عن الطير، والتناص مع أشعار الأقدمين.
- من الصنعة كذلك الاستعارة (العدل أخرس، دعت ظباه الطير، كاد يسقط فرحةً نسر السما، وفي الاستعارة الأخيرة شبه النسر بالإنسان، لأن الفرح من خصائص الإنسان).

وكذلك قوله: (تب يا زمان).

من الصنعة البديعية: الجناس في قوله:

١٢. بَـدرٌ مِـن الأَتـراك لَمـا أَنْ بَـدا تَـرَكَ البُـدورَ تُـرى لِعَينـكَ أَنجُـما

فالجناس بين (بدر – البدور) (بدر – بدا) (ترك – الأتراك) (ترى – ترك)، وفي النص عموماً مستويات كثيفة من المجانسة أكسبته إيقاعاً موسيقياً ملحوظاً وذلك البيت مثال عليه.

وفي قوله:

٢٣. وَدَعَـت ظُبـاهُ الطَّـيرَ حَتّـى إِنَّـهُ قَد كاد يَسقُطُ فَرحـةً نَسـرُ السَّـما

نجد فيه تكراراً لحرف السين والراء والميم واللام، وهذا يضفي إيقاعاً داخلياً بديعاً (حروف الهمس).

ومما زاد الإيقاع جمالاً اتخاذه البحر الكامل وهو بحر صافٍ أي يقوم على تفعيلة واحدة تتكرر، ومتفاعلن (/ / / ٥ / / ٥) في البحر الكامل هي تفعيلة سباعية، تغلب فيها الحركة على السكون، مما يعطي النص إيقاعاً ظاهرياً قوياً من خلال الصنعة الجناسية الكثيفة، ومن خلال البحر الكامل الذي يُعدُّ بحراً صافياً صاخباً إيقاعياً.

انتهى